مقومات المجتمع المصرى

بقلم الأستاذ س . ق

المجتمع المصرى الحاضر تركة تلقيناها من يد الأجيال السحيقة والقرون الموغلة فى التاريخ، وهى تركة مثقلة لا تصلح — فى شكلها الحاضر — أن تكون رأس مال للأجيال القادمة ولا حتى للجيل الحاضر فى مفتتح عهد الاستقلال .

ولكنها — مع هذا — ليست شرا خالصا ولا ميئوسا منها، بل فيها الخير وفيها الشر، وإن يكن خيرها مطمورا خلف آكام من الشرور، منها فى ذلك مثل الأرض الطيبة يتعاورها الإهمال والإفساد، فيكثر فيها السبخ والأملاح، وينبت فيها الحسك والرؤان .

فإذا رزقت وارثا حسن التدبير صادق العزيمة أخذ يفلحها وينبشها وينقيها مما ألم بها، وما يزال كذلك غير يائس منها ولا مستكثر جهدا عليها حتى يعثر بالتربة الخصبة المطمورة فيلقى فيها البذرة السليمة الأصيلة .

والمجتمع المصرى — هذه التركة المثقلة — هو وليد الطبيعة المصرية وهى طبيعة سليمة قويمة، ولكن عناصر أجنبية عبثت بها وأفسدت ذلك المجتمع منذ أجيال وقرون . وما نحب أن نوغل فى التاريخ، بل حسبنا عهد الاستعمار التركى وعهد الاستعمار الأوربى، ومدتهما أكثر من ستمائة عام .

لقد عاشت مصر هذه الحقب كلها فى ظلام وفساد لا عهد للعالم بهما ولا يتصور العقل البشرى أشد منهما أذى لكيان الشعوب وأساس المجتمعات وقواعد الخلق والضمير .

ولو غير الطبيعة المصرية العريقة ابتلى بمثل ما ابتليت به مصر لما بقيت له سحنة ولا سمت، ولكان اليوم فتاتا متناثرا لا يصلح لشىء فى الحياة .

إن العراقة وروح الصبر والسخرية وشدة التمسك بالتقاليد هى التى أبقت لمصر عنوانها بعد هذه القرون، التى سادتها فيها أرستقراطية لا تمت إليها بصلة فى الجنس ولا فى الطبيعة ولا فى الاخلاق .

وقد كانت فى أوربا إقطاعيات ولكنها كانت إقطاعيات وطنية يشترك الأسياد فيها والعبيد فى وحدة العنصر فأمكن استصلاحها وإنقاذ الشعب من ويلاتها . أما فى مصر فقد كان الأسياد من أمم أجنبية لا علاقة لهم بالعبيد فى طبيعة ولا إحساس . ومع هذا فقد صمد هؤلاء العبيد واحتفظوا بشخصيتهم، وهذه إحدى مفاخر الطبيعة المصرية العريقة .

كل ما نقاسيه اليوم من ويلات اجتماعية ملخصا فى إهمال الريف والأحياء الوطنية ، وفقر سكانها وجهلهم ، وتفشى رذائل اجتماعية شتى كالفردية وإهمال حقوق الجمهور وعدم التضامن الاجتماعى ... إلى نهاية هذه القائمة الطويلة — إنما نشأ يوم كان السادة عنصرا آخر غير عنصر العبيد ، فلم يحسوا شيئا من آلام الشعب ولم يقدروا مصالحه أو يتدمجوا فى كتلته ، فبقيت الارستقراطية الأجنبية تنعم فى المدن وفى أحياء خصة منها ، بينما الشعب كله فى المعاور والقبعان والكهوف .

لهذا السبب لم تكن لنا قصور ريفية تاريخية ، ولا ارستقراطيات وطنية محلية كما هى الحال فى أوربا ، ولهذا بقى الريف قبورا مهجورة وأحياء الفقراء فى المدن أكواخا قذرة ، وانزوى المجتمع المصرى يعيش على فتات الأسياد ، ويتملقهم ويسخر بهم فى سره ، ويخشاهم ويسىء الظن بهم ويتندر عليهم فى مجامعه ، ويتخذ من الحكام عدوا ، ويرتاب فى كل حركاتهم وأعمالهم ، ويسرق ما تقع عليه يده من مالهم ، ويغتنم كل فرصة للتفلت من نظامهم وتمتلئ نفسه حقدا عليهم ، كما تمتلئ بالرذائل الاجتماعية من جراء هذا جميعه .

وما كاد هذا المجتمع يتخلص من النير التركى الظالم الثقيل ويجلس على عرشه واليا يختاره بمشيئته حتى تلقاه الاستعمار الأوربى وهو على حالته هذه مضعضع القوى مزعزع العقيدة سقيم الوجدان ، وإذا هو كالجسم العليل يتلقى كل مقومات الصحة فى التقاليد الأوربية وتجتذبه كل أمارات الضعف فى هذه التقاليد ، فكان هذا شرا على شر وسقما على سقم فى جسم منهوك هزيل .

تلك خلاصة المأساة التى أورثتنا هذا المجتمع الحاضر . ولولا إيمان عميق بعراقة الطبع المصرى وقدرته على نفض ما اندس فيه من الدغل والأدران لكان علينا أن ننقض الأيدى من كل رجاء وكل إصلاح .

* * *

والآن فندع ما فات ولا نلق بالنا إلى الماضى الأليم .

نحن فى مولد عهد جديد ، فعلينا أن نخلق مجتمعا جديدا نستخلص عناصره من الطيبات فى ماضينا ، ونستنقذه من براثن التاريخ الطويل ، ونجمع له كل مقوماته الأصيلة التى لم يستطع الزمن إزالتها فمن العبث أن نحاول الإصلاح من غير أساس .

نحن فى حاجة إذن إلى رسم المقومات الأساسية للمجتمع الذى نريده ، والذى يتفق مع عهد الاستقلال ومع المجتمع العالمى الحاضر . فإذا شخصنا هذه المقومات أمكن أن نبدأ البناء فوقها فى كل مراحل الحياة . وفى التربية والتعليم والتشريع .

ولا أحسب أن البحث وراء هذه المقومات يطول ، فهى واضحة بارزة فى تاريخنا وحياتنا على الرغم من كل ما اعتورها من آفات ، وهى تتلخص فى هذه الأصول الثلاثة : الثقافة المصرية القديمة ، الدين الإسلامى واللغة العربية ، المدنية الأوربية العلمية والصناعية .

فلنقل كلمة مختصرة عن كل من هذه المقومات :

فأما الثقافة المصرية القديمة ، ونعنى بها الروح المصرية والتقاليد والأساطير والخرافات فهى سارية فى دمائنا ، مؤثرة فى ميولنا ، مختبئة وراء عاداتنا ، منبثة فى خرافاتنا ، لا تخطئها عين الباحث فى أفراحنا ومآتمنا وفى مواسمنا وأعيادنا ، وفى كثير من اصطلاحاتنا اللغوية — على الرغم من اللغة العربية — وفى أمثالنا ومأثوراتنا الشعبية .. وفى كل مرافق حياتنا العامة . هى واصحة بعد ما يقرب من ألفى سنة فى المسيحية والإسلام ، وبعد قرون من الاستعمار التركى والأوربى . وهى حجر السلامة فى كياننا الباقى على الأيام .

وأما الدين الإسلامى واللغة العربية ، فمصر لم تتأثر بهما فحسب كما تأثرت كل البلاد التى فتحها الإسلام ، بل كانت موئلا لهما ضد عوادى الزمن والفتح ، فهى تشعر فيهما اليوم بنوع من الأمومة والحصانة ، ومهما أصابهما من العوادى بسبب الاضطراب الفكرى والتحلل الخلقى عقب الحرب العظمى فإن كيانهما سيظل سليما فى مصر أم التاريخ وحارسة المدنيات وراعية الأديان . وسيبقيان عنصرا أساسيا فى تكوينها الفكرى والاجتماعى وأحد المقومات الأصيلة فى بنائها التاريخى .

وأما المدنية الأوربية فلا سبيل لإنكارها ، والقلم الذى أكتب به هذه الكلمات والورق الذى أخطها عليه والنور الذى أستضىء به والمكتب الذى أجلس إليه ... كلها من آثار المدنية الاوربية .

ولو أصبحت هذه الأشياء جميعا من صنع مصر — وستصبح كذلك قريبا — فستبقى مع ذلك أوربية الأساس افرنجية السحنة ، وستبقى مؤثرة فى توجيهنا الفكرى وفى حياتنا اليومية بلا جدال .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى حياة المجتمع المصرى ، وعليه أن يزاوج بينها وأن يحكم مزاجها ، وأن ينفى ما عداها مما علق به من غبار السنين والاستعمار ، وأن يأخذ من كل منها بما لا يفسد الخليط أو يفقده المرونة والانسجام .

والوسيلة إلى ذلك كله :

أولا — أن نرتقى بدراسة التاريخ المصرى إلى المستوى اللائق بالتاريخ القومى ، وأن نحيلها دراسة حية نابضة تعنى ببعث مصر القديمة شخصية كاملة على ممر الأجيال ، وأن نبرز حياة البطولة المصرية كلما عثرنا عليها فى التاريخ ، وأن نضم إلى التاريخ الجاف نبضات الحياة فى الفنون والفلسفة المصرية القديمة بتوسع واستغراق .

ليت مصر القديمة هى هذه السطور الجوفاء الجامدة فى الكتب المدرسية . ولكنها هناك فى المتحف المصرى وأوراق البردى والموسيقى المصرية . وهى هناك فى النيل وأعياده ومواسمه

وخرافاته وأساطيره ، وفى العادات المصرية ، التى تعيش بين جدراننا ونحن عنها غافلون .

هـــذه الروح التى تظل علينا من كهوف التاريخ ومعابده هى الروح المصرية التى تجب دراستها دراسة صحيحة طويلة تصل الماضى بالحاضر ، وتشعرنا بالامتداد والخلود .

ثانيا — أن نجعل الدين الاسلامى أساس التعليم فى كل مرحلة من مراحل الدراسة وأن نجعل اللغة العربية أساس التعامل فى كل دار من دور العمل ، وألا نتسامح فى هذا أو تتهاون ، كما تصنع جميع الشعوب .

ومن الروح الإسلاميـــة والتقاليد المصرية ينبغى أن نصوغ التشريع مع ملاحظة روح العصر ، وليس هذا بمتعارض مع الصبغة العالمية للتشريع العصرى ، فقد اعترفت المجامع التشريعية الأوربية باعتبار التشريع الإسلامى أصلا من أصول التشريع الحديث .

ولست أدعو بهذا إلى اطراح القوانين المدنية والجنائية الحاضرة ، إنما أدعو إلى الملاءمة التامة بينها وبين روح التشريع الإسلامى وروح التقاليد المصرية معا ؛ فالقانون ظل المجتمع ، والمجتمع المصرى مزاج من ثلاثة مقومات فيجب أن يكون تشريعه ظلا صادق التمثيل له .

ثالثا — أما المدنية الأوربية ، فمن الخطأ والتعنت إهمال أثرها أو إبعاده عن محيطنا المصرى . فذلك جهد ضائع وتفكير غير مستقيم . ولكن ينبغى أن نهضمها ونحيلها دما مصريا خالصـــا ، فالحضارات نتاج إنسانى ، تصبغه كل أمة قوية الطبيعة بصبغتهـــا الخاصة ، وتمثله دما فى بنيتها يقويها ويحميها .

وعلينا نحن أن نتناول هذه المدنية الأوربية التى لنا نصيب فى تكوينهـــا معترف به يوم ردت مصر إلى أوربا خزائن الحضارة الاغريقية المغلقة ، ويوم ردت إليهـــا مرة أخرى كنوز الحضارة الإسلامية المطمورة ، علينا أن نتناولها اليوم تناول أصحاب الحق فيها المشتركين فى تأسيسها فنعطيها اللون المصرى المستق من الروح المصرية والروح الاسلامية معا ، ونخرجها مزاجا جديدا له عنوان معروف فى الفنون والعلوم والتشريع والحضارة على العموم .

فى التعليم ، وفى التشريع ، وفى الحيـــاة اليومية ، نحن فى حاجة إلى مزج هذه المقومات الثلاثة قبل أن نخطو خطوة واحدة فى سبيل الاصلاح الاجتماعى على غير أســاس .

أما الأمراض الاجتماعية التى خلفها الاستعماران الفاسيان ، فجرعات قوية متتابعة من هذا المزيج كفيلة بشفاء أكثرها . وأما ما خلفته فى النواحى الاقتصـــادية والعمرانية فينبغى أن نسير فى خطوات مضادة لخطوات الاستعمار التركى ، بأن نجعل الحكومة للحكومين لا للحكام ، وأن نديل للقرية من المدينة ، ونرد للاولى اعتبارها وأموالها فى مشروعات التجديد والإصلاح .

وليس هنا موضع التفصيل فى هذه الشؤون . وكلها واضح معروف لاتنقصه الا النية الصادقة والعزيمة المنفذة ما

س . ق